تبسيط استخدام اللغة العربية
الضعف اللغوى والإصلاح

د. عوض بن حمد القوزى
جامعة الملك سعود

نحس ضعفًا واضحًا فى المستوى اللغوى لطلابنا فى الجامعة ، هذا الضعف لا يقف عند حدود الإعراب ، والسيطرة على النحو وقواعده ، بل يتعدى النحو إلى الصرف وما يتعلق ببنية الكلمة الصحيحة ، إلى التركيب وبناء الجمل ، فضلاً عن القصور فى استخدام الصور وتوظيف علوم البلاغة فيما يُكتب ، ناهيك عن الضعف فى الإملاء وقواعده ، ومكملاته من علامات الترقيم وصنعة الخط والكتابة .

وتتصاعد الشكوى بين الفينة والأخرى معلنة عن صعوبة اللغة العربية ملتمسة البلسم الشافى من المتخصصين فى علومها بتبسيط مناهجها ، لتسهيل ولوج بحارها ، والاستفادة من تراثها ، ويهبُّ بعض الغُيُر من أبناء هذه الأمة محاولاً تذليل الصعاب ، وإزالة العقبات التى تعترض سبل التعلّم والاستفادة ، وفى خضم المعمعة تختلط أوراق المجددين بأوراق المحافظين ، وصيحات المتضررين بصيحات المنقذين ، ويهدأ الضجيج ، وتخفت الأصوات ، وينصرف كل بما معه ، فالمشتكون يعودون بالمرارة إذا لم يجدوا منقذًا ، ولم يحصلوا فائدة ، والمؤمل فيهم الحل يلملمون أوراقهم كالمنهزم فى المعركة .

وتبقى الشكوى ، وتـظل الأجيال تتوارثها ، والحل غير بعـيد ، لكن الوصول إليه ليس سهلاً ولا مفروشًا بالورود .

قبل الدخول فـى الموضوع وتقرير ما يمكـن تقريره من حيث صعـوبة اللغة العربية أو سهولة تـعلمها ، ينبغى أن نعترف أن مادة النـحو والصرف ليست من المواد ذات الجذب النفسى لـلمتعلمين ، وأن الإقبال عليها أقل مـن تقبل غيرها من العلوم العربية ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك تعلم أصواتها ، ودراسة لهجاتها ، فإنا نكون قد أضفنا على المتعلم عـبئًا إلى أعبائه ، وهذه الصعوبات لم تأت من جهـة هذه العـلوم وحدهـا ، بل لعـل هنـاك من الأسبـاب ما يمكـن وراء هذه الصعوبات ، فقد نقل الجاحظ عن الخـليل بن أحمد قوله : «لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاج إليه ، حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه» [1] .

إن دارسى اللغة الـعربية بعامة ، والنـحو العربى بخاصة يـدركون الظروف الفريدة التى نشأ فيها علم النحو ، كما أنهم على علم تام بالمصادر المختلفة التى قدمت له المادة اللغـوية ، والعلماء الذين توفروا له وعمـلوا فى حقله [2] فهم على علم بمواقف الأعـراب من هذا العلم الذى يرونه يعالج كـلامهم بكلامهم بما ليس فى كلامهم [3] .

وهم على علم أيـضًا بشكوى الدارسين من صعوبة هذا الـعلم ، أو لنقل بعض مسـائله ، والتماس تـبسيطها ، عـلى نحو ما نجد عـند «دَمَاذ» أبى غسّان رفيع بـن سلمة تـلميذ أبى عـبيدة ، وهو يـخاطب أبا عثـمان المازنى الـنحوى (ت٢٤٩هـ) :

---

(١) الحيوان ١/ ٣٧ - ٣٨ .

(٢) انظر : دراسات فى اللغة والنحو العربى / ٨٧ .

(٣) عيون الأخبار ، ٢/ ١٧٤ ..

تفكَّرتُ فى النحو حتى مَلِلْت ... وأتعبتُ نفسى له والبدنْ
وأتعبت بكراً وأصحابه ... بطول المسائلِ فى كلّ فنّ
سوى أن بابًا عليه العفا ... ء للفاء يالَيْتَهُ لم يكُنْ
فكنت بظاهره عالمًا ... وكنتُ بباطنه ذا فطَنْ
وللواو بابٌ إلى جنْبِهِ ... من المقت أحْسَبُهُ قد لُعِنْ
إذا قُلت : هَاتُوا لماذا يقا ... ل لَسْتُ بآتيك أو تَأتِيَنْ
أجيبوا : لما قيل هذا كذا ... على النصب ؟ قالوا : لإضمار أنْ
وما إن رأيتُ لها موضعًا ... فأعرف ما قيل إلا بظَنّ
فقد خفتُ يابكرُ من طول ما ... أفكر فى أمر «انْ» ان أُجَنّ [1]

ولم تقف الشكوى عند بعض المتعلمين ، بل تعدّت إلى بعض العلماء ، فهذا الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وهو من هو فى الثقافة العربية يستصعب شروح أبى الحسن الأخفش سعيد بن مسعدة (ت٢٢٥هـ) لبعض المسائل النحوية فى كتاب سيبويه ، فيتوجه إلى الأخفش قائلاً : «أنت أعلم الناس بالنحو ، فَلِمَ لا تجعل كتبك مفهومة كلّها لله وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ وما بالُك تقدّم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم . . .» [2] ، بل إن الأخفش نفسه استصعب بعض كتب النَّظَّام وأضرابه فلم يفهم أكثرها [3] وإذا كان هذا حال الجاحظ والأخفش ، فما بالنا بمن هم دونهما ذكاء ونفاذ بصيرة ، بل ما بالنا بمن جاءوا بعدهما فى عصور الخلافات النحوية ، وما جدّ فى مدارس النحو بين النحاة فى الأقاليم العربية المختلفة من الآراء

(١) انظر العقد الفريد ٢/ ٣١٦ ، إنباه الرواة ٢/ ٥ - ٦ .
(٢) الحيوان ١/ ٩١ - ٩٢ .
(٣) المصدر نفسه .

والتعليلات المتشعبة . . . ؟ [1] .

لقد كان تعلم النحو فى العصور الأولى صعبًا ، وهو كذلك فى العصور التالية ، ولكن الإقبال على تعلمه لم ينقطع ؛ لإدراك الناس أهمية هذا العلم ، وأنه جمال للوضيع ، كما أن تركه هجنة للشريف [2] .

وكانوا ينفقون بسخاء على تعلّمه ، ويصبرون على عويصه ، فقد حدَّث المازنى أن رجلاً قرأ عليه كتاب سيبويه فى مدة طويلة ، فلما بلغ آخره قال الرجل للمازنى : أمّا أنت فجزاك الله خيراً ، وأما أنا فما فهمت منه حرفًا [3] .

هذه الشكوى ونحوها دعت القائمين على نشر هذا العلم أن يفكّروا فى تبسيطه وتقريبه إلى الناس ، فالأخفش مثلاً - وهو الذى نقل إلينا كتاب سيبويه - يؤلف مسائله الصغرى ثم الكبرى لتبسيط بعض أبواب الكتاب [4] .

والمازنى يضع كتابه فى التصريف خاصة دون مزجه بالنحو ، والجرمى (ت٢٢٥هـ) يؤلف شرحًا لكتاب سيبويه وصف بأنه جيد ، وعرف باسم «الفرخ» ومعناه «فرخ كتاب سيبويه» [5] .

ثم يعكف تلاميذ هؤلاء من بعدهم على تلمس الوسائل لتبسيط هذا العلم من خلال وعائه الذى وصل إلينا متمثلاً فى كتاب سيبويه ، فالمبرد يقدم النحو فى صورة أكثر نضارة فى المقتضب ، فيحاول تقريب ألفاظه وتهذيب

---

(١) انظر تيسير النحو ، ضمن كتاب : فى أصول اللغة ٣/ ١٩٩ .

(٢) العقد الفريد ، ٢/ ٤٧٨ .

(٣) انظر مراتب النحويين / ١٢٦ .

(٤) طبقات النحويين واللغويين / ٦٣ .

(٥) إنباه الرواة ٢/ ٨١ .

مصطلحـاته ، وتذليل عباراته مع المحافـظة على شخصية الكاتـب ، ثم يحمل راية الـرياسة بعـده تلاميـذه الذين كان ابـن السراج وأبـو إسحاق الزجـاج من أبرعهم ، فيتناول الأول النحو فى أسـلوب جديد ويعرضه فى كتاب «الأصول» عرضًا جديدًا ؛ يدعو طلاب العربية إلى تقبله ، وتجاوز صعوباته ، وفى خضمّ ذلك تزدهر الحركـة العلمية وتنشط الدراسـة النحوية ، حتى إنها لـم تعد تقف عند الرأى النحوى دون مناقشة أو تعليل ، وأصبحت المسلَّمات الأولى خاضعة للجدل والـتوجيه ، وتجاوز علم النـحو حدود الإعراب ،ومجال حفـظ اللسان من الوقوع فـى اللحـن ، لقد أصبح علـمًا خاضعًا للمنطـق ، وأصبح علماؤه لا يقنعون بـاستظهار قواعده دون سبـر لإغوارها ، وتعليل لظـواهرها ، وهذا وإن كان مما يحسـب لهم فضله ، إلا أنه لا يعفيـهم من تبعة تصعيـبه وإغماضه علـى الناشئـة الذين بـعدت بهم الأمـكنة والأزمان عـن لغة الـعرب الفصـحاء وسماعها غـضة طريّة من أهلها ، فهـم يتلقونها - أصولاً وفـروعًا - مصحوبة بقوانينها الجديدة ، وتعليلاتها المنطقية المجردة - فتصاعدت الشكوى من صعوبة النحو ، ومن عدم فهم لفظ كتاب سيبويه «وكان من المفروض والنحو قد وضع للحفـاظ على اللغة ، ووقـاية الألسنة من الخطـأ أن يحرص القائمـون عليه ، والمعنـيون به علـى أن يظل سهـلاً ميسورًا خالـيًا مـن التـعقيد بعـد تقسـيمه وتفصيله ، وتناوله للجزئيات والفروع» [1] .

فانبرى تـلاميذهم مـن علـماء العربية فـى الـقرن الرابع الهجرى يـبسطون لفظـه ، ويذللون صعبـه ، ويشرحون متنـه ، فأبدعوا فى ذلك ، وبـرعوا فى التعامل معه ، حتى إن ابن أبى سعيد السيرافى لما قرأ كتاب «الإقناع» الذى ألفه

---

(١) النحو العربى بين التطوير والتيسير / مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء ٧٠ ، ذو القعدة ١٤١٢هـ / مايو ١٩٩٢م ، ص ٢٣٦ .

أبوه قال : «وضع أبى النحو فى المزابل بالإقناع ، أى سهّله جداً فلا يحتاج إلى مفسر» [1] .

ولما اطلع عضد الدولة على إيضاح أبى على الفارسى استسهله فقال : «إنما يصلح هذا للصبيان» [2] ولمّا استصعب طلاب العربية كتاب سيبويه هبّ نفرٌ لشرحه وتبسيطه ، فشرحه أبو سعيد السيرافى شرحًا أجاد فيه بما لم يسبقه أحد ، ولم يأت بعده أحد بمثله [3] ومثله فعل معاصره أبو الحسن على بن عيسى الرمانى (ت٣٨٤هـ) حيث شرحه شرحًا مفصلاً ، بأسلوب لم يسبق إليه [4] . وجعله أبو على الفارسى همه وسدمه ، حتى أصبح أشبهم تفردًا به ، وإكبابًا عليه [5] ، فعلق عليه تعاليق مفيدة [6] وخصه بمسائل نافعة ، ذللت صعبه ، ويسرت الطريق نحو فهم نصوصه [7] ، كما صنع نصر بن هارون القرطبى (ت٤٠١هـ) كتابًا بحث فيه بعض مسائل الكتاب سماه : «شرح عيون كتاب سيبويه» وهو فى منهجه يشبه إلى حدٍّ كبير منهج أبى على فى تعليقته ، وما كتاب «الجمل فى النحو» لأبى القاسم الزجاجى (ت٣٤٠هـ) وكتاب «الواضح» لأبى بكر الزبيدى (ت٣٧٩هـ) ، وكتاب «اللمع فى العربية» لأبى الفتح عثمان بن جنى (ت٣٩٢هـ) إلا محاولات قصد بها مُصنفوها تيسير النحو

---

(١) انظر بغية الوعاة / ٢٢٢ .

(٢) المصدر السابق / ٢١٦ .

(٣) معجم الأدباء ٨/ ١٥٠ - ١٥١ .

(٤) انظر الرمانى النحوى فى ضوء شرحه لكتاب سيبويه / ١٩٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٥) الامتاع والمؤانسة ، ١ / ١٣١ .

(٦) انظر التعليقة على كتاب سيبويه ، بتحقيقنا ، وقد نشر فى ستة أجزاء .

(٧) للفارسى مسائل كثيرة منها البغداديات والحلبيات ، العسكريات ، العضديات ، الشيرازيات ، والمنثورة ، وكلها تدور حول موضوعات من الكتاب ، وقد نشرت هذه المسائل ولله الحمد ، بالإضافة إلى بقية كتبه كالإيضاح والتكملة ، والحجة للقراء السبعة .

وتسهيل تعلُّمه ، بعيداً عن التعقيد والتعليل ، حيث تلقَّفها طلاب العربية واستحسنوها ، لأنها تستجيب لحاجاتهم من هذا العلم بطريقة سهلة ميسرة ، صيغت لغايات تعليمية ، وسلك بها مصنفوها سبل اليسر والسهولة دون أن يثقلوا أذهان المتعلمين بكثير من قواعد العربية فتداولتها الأيدى واحداً بعد آخر وشرقت وغربت فى البلاد العربية ، فقد انتشر كتاب «الزجاجى فى مصر والمغرب والحجاز واليمن والشام، وما انصرف عنه طلاب العربية حتى ظهر إيضاح أبى على ولمع ابن جنى ، وقد حظيت هذه الكتب باهتمام الدارسين فتناولوها شرحًا وتوضيحًا وتعقيبًا واستدراكًا ، وكل ذلك انعكس على تلقف الدارسين لها بالقبول والرضا ، لاقتصارها على عرض المسائل الأساسية الضرورية لتقويم اللسان والقلم وبُعدها عن الاستطرادات وسرد دقائق القضايا النحوية والصرفية . . . [1] .

وما دام تيسير النحو مطلبًا ملحًا فلابدّ إذن من أن نعرف العوامل التى كان لها أثرها فيما انتهى إليه من صعوبة وتعقيد [2] وأهم هذه العوامل :

اولا:

اعتداد النحاة بالأخذ عن المصادر السليمة البعيدة عن مظنة التحريف ، ومبالغتهم فى ذلك حتى إنهم اعتدوا بالبيت الواحد ، وبشطر البيت الذى لا يعرف باقيه ، مما أدَّى بهم إلى أن يصفوا بعض ما جمعوه بأنه شاذ ، أو نادر ، أو ضعيف ، أو قليل ، فى الوقت الذى كان لهم غناء فى اتخاذ القرآن الكريم

---

(١) انظر تيسير تعليم العربية فى التراث ، مجلة مجمع اللغة العربية الجزء (٥٨) شعبان ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ص ٣٧ - ٤٦ .

(٢) انظر النحو العربى بين التطوير والتيسير ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء السبعون ، ذو القعدة ١٤١٢هـ / مايو ١٩٩٢م ، ص ٢٣٦ - ٢٤١ (بتصرف) .

والحديث النبوى الصحيح وما اتفق عليه الرواة من رائع الشعر والخطب والوصايا مثلاً يحتذى به ، ونموذجًا يقتدى ، فلو سلكوا هذا المسلك القريب لخلصوا النحو من الأساليب الشاذة الميتة ، ولخلصوه من كثير من الحشو ، ولأبعدوا عنه كثيراً من عوامل التعقيد والتلبيس .

ثانيا :

تأثر علماء النحو بالدراسات الفلسفية المنطقية ، الأمر الذى أبعدهم عن واقع اللغة ، وصرف الهمم عن الأساليب التى استعملها العرب إلى نهج عقلى يفترض المسائل ويحللها ، ويبتدع العلة ويضرب فى متاهاتها ، مما أدخل فى النحو ما ليس منه ، كاستعمال مصطلحات المتكلمين من بسط ، وتركيب ، وتسلسل ، واجتماع الضدين وغير ذلك .

ثالثا :

الإغراق فى التعليل والمبالغة فيه ، وقيام كثير من عللهم على الحدس والتخمين ، الأمر الذى يؤول بهم إلى كثير من التعسف والتكلف ، على نحو قولهم فى علة وجود النون فى المثنى والمجموع جمع سلامة بأنها لحقتهما عوضًا عما فاتهما من الإعراب بالحركات ومن دخول التنوين ، وحذفت هذه النون مع الإضافة للتعويض ، ولم تحذف مع الألف واللام للتعويض بها عن الحركة وقيل : لحقت لدفع توهم الإضافة ، ودفع توهم الإفراد ، وأنها كسرت فى المثنى على الأصل ثم خولفت الحركة فى الجمع طلبًا للفرق ، وجعلت الفتحة طلبًا للخفة .

رابعاً :

مبالغتهم واحتفاؤهم بالعامل ، وتـفرقهم شيعًا فيه ، وخلافهم فى كنهه ، الأمر الذى أدى بعدد منهم إلى المطالبة بإلـغاء نظرية العامل ، وأن فى تخليص النحو منها خيراً كثيراً ، ولو أنهم نظـروا إلى العامل كما نظر إليه واضعوا اللغة نفسهـا لما وصلوا إلى ما وصلوا مـن خصومة وخلاف ، لأن العامل لـم يقصد منـه إلا التقريب والـتيسير عـلـى الدارسـين ، حتى يسهـل عليهم الـربط بين الألفاظ ، وتظهر علاقـة بعضها ببعض ، وما يترتب علـى هذا الربط من ضبط خاص لهذه الألفاظ .

خامساً :

اختلافهم فى تـقدير إعراب بعض الألفاظ ، وهل هى مـعربة بالحروف أم معربة بالحركات والحروف ناشئة من إشباع الحركات ، أم أن هذه الحروف دلائل إعراب ، أم أن انقلابهـا هو الإعراب ، وهل هذه الألفاظ معـربة من مكان أو هى معربـة من مكانين ، وسواء اتفـقوا أو اختلفوا فـلن يغيروا شيئـا من تلك الحروف .

سادساً :

المبالغة فى دراسـة بعض الألفاظ ، وهل هى بسيطة أم مركـبة ، وكالبحث فى جموع الـتكسير للمـفردات المختلفة ، ونـحو ذلك مما يضعونـه من ضوابط ومعايير ليست قاطعة فى الدلالة ، كما أنها ليست جامعة للمفردات ، وكان من الأولى أن تُنَحَّى هذه الأسـاليب عن دراسة النـحو وأن توضع حيـث يجب أن تكون ، لا أن يُحشر بها المنهاج وتثقل بها المادة العلمية .

سابعاً :

لجوء المصنفين إلى التمارين غير العملية ، والصيغ المفترضة التى لم تتكلم بها العرب ولم تعرفها لغتهم ، وهذه لا تزيد الذهن إلا عناء ولا النحو إلا صعوبة وتعقيداً ، «وإنه من يتصفح هذه المؤلفات الكثيرة يعجب من الجهد المبذول فيها حقًا ، غير أنه يضلّ وسط الآراء الجدلية النظرية ، التى لا تفيد كثيراً فى الدرس النحوى ، والابتعاد عن الواقع اللغوى إلى الافتراض» [١] .

يضاف إلى تلك العوامل اعتدادهم بمبدأ التأخير والتقديم ، وحيث يكون أحد هذين واجبًا أو جائزًا ، فضلاً عما أولعوا به من التقدير والحذف ، وانتحاء سمت علماء الكلام فى التعليل ، يقول ابن جنى : «اعلم أن علل النحويين - وأعنى بذلك حذاقهم المتقنين ، لا الفافهم المستضعفين - أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين» [٢] وهو مع ترجيحه علل النحويين على علل المتفقهين ، وإلحاقها بعلل المتكلمين إلا أنه يقول : «لا ندعى أنها تبلغ قدر علل المتكلمين ، ولا عليها براهين المهندسين ، غير أنا نقول : إن علل المتكلمين على ضربين : أحدهما : واجب لابد منه ، لأن النفس لا تطيق فى معناه غيره ، والآخر ما يمكن تحمله ، إلا أنه على تجشم واستكراه له» [٣] ، ولذلك فقد شاعت مصطلحات المتكلمين عند بعض النحاة كقولهم : «منزلة بين المنزلتين» [٤] وأن لفظًا مثل (كلاَ) يقع بين الأسماء والأفعال [٥] بالإضافة إلى مصطلحاتت «الأصل ، والفرع ، والنظير ، والسبب» وغيرها [٦] .

---

(١) بحوث ومقالات فى اللغة / ١٥١ .

(٢) الخصائص ١/ ٤٨١ .

(٣) المصدر السابق ١ / ٨٧ - ٨٨ .

(٤) أسرار العربية / ١٤١ .

(٥) طبقات النحويين واللغويين / ١٣٣ .

(٦) انظر قضايا التقدير النحوى بين القدماء والمحدثين / ٢٩ - ٣١ .

ولا شك أن اختلاف مناهج المدارس النحوية تبعه اختلاف نحاتها فى استنباط الأحكام كما أن الاختلاف بينهم حول المادة اللغوية أدى إلى اضطرابهم فى الأحكام نتيجةلاختلاف مناهجهم فى القياس والسماع ، واعتدادهم ببعض اللهجات على حساب أخرى دون الاحتفال بمستوى لغوى واحد أو لهجة واحدة [1]

الذى يبدو أن نحاة القرن الرابع الهجرى أدركوا ما وصلت إليه الدراسات النحوية من تعقيد ، وأنها أخذت تبتعد عن وظيفتها الأساسية وعندئذ خلّصوا بعض مؤلفاتهم من أوضار التعقيد فلقيت هذه قبولاً عند طلاب العربية ، ورواجًا كبيرًا استمر عقودًا زمنية طويلة على نحو ما أشير إليه سابقًا من تقبل الدارسين «جمل الزجاجى ، وإيضاح الفارسى ، وواضح الزبيدى ، ولمع ابن جنى» .

ونظرًا لارتباط علم النحو باللغة ، وأن اللغة العربية هى وعاء الدين الإسلامى ، فإن أى إصلاح فى هذا العلم يجب ألا يغفل ارتباطه الوثيق بموروث هذه الأمة الدينى ، فلا ينبغى أن يحس أهل هذه اللغة أن التيسير قد مسّ هذا الموروث من قريب أو بعيد ، وليس معنى هذا تقديس اللغة ، ولكن احترام مشاعر أهلها يفرض على دارسيها مراعاة أسسها ، وتقدير مكتسباتها . ، ومراعاة الضوابط التى أحاطت بها منذ وقت مبكر ، فحفظتها عبر العصور مغالبة عوادى الزمن وعوامل التغير [2] .

ولعل المثالين التاليين يبلوران هذه الحقيقة ويجليان ما أومأنا إليه :

---

(١) انظر تيسير تدريس اللغة العربية سلسلة المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية ، عام ١٩٧١ / ١٩٧٢م ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق / ١٨٩ .

أمّا المثال الأول : فيتمثل فى ثورة ابن مضاء (ت٥٩٢هـ) فى وجوه نحاة العربية ، و «أنّهم التزموا ما لا يلزمهم ، وتجاوزوا فيها (الصناعات النحوية) القدر الكافى فيما أرادوه منها ، فتوعرت مسالكها ، ووهنت مبانيها . . . على أنها إذا أخذت المأخذ المبرأ من الفضول ، المجرد عن المحاكاة والتخييل ، كانت من أوضح العلوم برهانًا ، وأرجح المعارف عند الامتحان ميزانًا ، ولم تشتمل إلا على يقين أو ما قاربه من الظنون [١] . ثم بيّن غرضه من تأليف كتابه بعد توطئة منطقية رصينة تعكس مذهبه الفقهى والنحوى ، فقال : «قصدى فى هذا الكتاب أن حذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه ، وأنبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظى . . .» [٢] .

فثورة ابن مضاء كما تعكسها دراسة محقق كتابه التى صدّره بها «لاتزرى على نظرية العامل ، وتلتمس تهجينها ، لأنها فاسدة فى ذاتها ، وإنما لما تجرُّه من تقدير فى العبارات لعوامل ومعمولات على نحو ما نعرف فى أبواب الضمائر المستترة ، والتنازع ، والاشتغال ، ونواصب المضارع من مثل الفاء الواو ، وأن النحاة ليبالغون فى هذا التقدير مبالغة تؤدى بهم فى كثير من الأحوال ،إلى أن يرفضوا أساليب صحيحة فى العربية ، ويضعوا مكانها أساليب واهية غثّة . وليس هذا كل ما تجرُّه نظرية العامل فى كتاب النحو العربى ، فهى تجر وراءها أيضًا حشدًا من علل وأقيسة يعجز الثاقب الحسّ والعقل عن فهم كثير منها ، لأنها لا تفسر غامضة من غوامض التعبير ، ولا دفينة من دفائن الأسلوب ، وإنما تفسر فروضًا للنّحاة وظنونًا مبهمة» [٣]

---

(١) الرد على النحاة / ٧٢ .

(٢) المصدر السابق / ٧٦ .

(٣) المصدر السابق / ٧ - ٨ .

هذه الثورة لم تعضّدها الآراء ، ولم تتقبلها العلماء ، فكانت صرخة منفردة فى تلك الأصقاع من بلاد الأندلس ، البعيدة عن مراكز الثقافية العربية فى بغداد والشام ومصر والحجاز ، وقد كان صداها ضعيفاً ، ولم تحظ بالقبول كما أن المنهج الذى اختطه ابن مضاء لم يقدّره النحاة التقليديون بعده حق قدره ، فنسى اسمه ، وغاب عن الدرس النحوى رأيه [1] .

ولنا أن نسأل : لماذا لم يحظ رأى ابن مضاء بالقبول عند الدارسين بالرغم من جرأته فى التصريح بتعقيدات النحاة وندائه أن يكون تيسير النحو قائمًا على نبذ هذه التعقيدات بتحطيم نظرية العامل ، وتحطيم التقدير فى العبارات ، ثم تحطيم الأقيسة والعلل ، وكذلك التمارين غير العملية وكل ما لا نفيد منه صحة فى الأداء ولا صوابًا فى اللسان ؟ ! [2] .

الذى يبدو أن إعراض النحاة عن طرحه هذا ومناقشته فيما ذهب إليه يعود إلى دعوته لنقض بناء قد تعالى ، وثبت قرونًا ، وتوطدت دعائمه ، وأن من يستصعبه فى عهد ابن مضاء أو بعده كان الأولى به الابتعاد عنه إلى غيره ، وكأن لسان حالهم يقول :

إذَا لمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعهُ وَجَاوِزْهُ إلَى مَا تَسْتَطِيعُ

نظروا إلى طرح ابن مضاء على أنه مخالفة لسنن مطروقة ، ودرب ممهدة مأهولة ، وأن إلغاء بعض مقومات هذا الأثر عدوان على ملازماته من الآثار ، فعدوه هجومًا بلا مبرر ، وعدوا استجابتهم له تمهيدًا لتنازلات أكثر ، تصل فى نهاية المطاف إلى إضعاف هذا العلم إن لم تبلغ به مرحلة الموت .

---

(١) أصول النحو العربى / ب ، وتيسير النحو ، ضمن كتاب فى أصول اللغة الجزء الثالث ، من إصدارات مجمع اللغة العربية فى عيده الخمسينى ، ص ٢٠١ .

(٢) الرد على النحاة / ٨ - ٩ .

صحيح أن الدرس النحوى يعانى من صعوبات تتمثل فى العامل ، والإعراب التقديرى ، والحذف والإضمار ، وتشعب الآراء بين أصحاب المذاهب النحوية ، ولكن الإلف الذى درجوا عليه قرونًا جعل التخلى عن شئ منها أصعب فى نظرهم من تجشم تعلمها وفهم عللها وأقيستها لذلك فقد صدوا عنها وتركوها إريًا فكريًا معطلاً .

أما المثال الثانى : فمن تراث عصر ابن مضاء نفسه أعنى القرن السادس الهجرى ممثلاً فى كتاب «المفصّل» للزمخشرى (ت٥٣٨هـ) نظر الزمخشرى فوجد أن النحو لم يتغير أو يتطور منذ عصر سيبويه ، وأن المؤلفات التى ظهرت فى الفترة الواقعة بينه وبين عصر سيبويه لم تخرج عن دائرة «الكتاب» ، «فتمرّد على الدرس النحوى ، وأعمل فى مباحثه ما يشبه عملية الهدم والبناء . كان الزمخشرى فريداً فى اتجاهه هذا بين معاصريه الذين كانوا يحترمون القديم ويتمسكون به ويحرصون على الحفاظ عليه . . . ولعل أهم ما جدّ على النحو بفضل الزمخشرى هو مواجهة أحكامه وقضاياه بعقلية مستقلة ، وتصور متحرر ، ثم مواجهة تخطيطه ومنهجه بحركة ثورية جديدة . . . كان الزمخشرى يحس إحساسًا قويًا بأن النحو كعلم - يدرس لذاته أولاً ، ولتقويم اللسان ثانيًا ، ولفهم النص اللغوى ثالثًا ، وللتوفيق بين أحكامه ونصوص اللغة التى يعالجها رابعًا - متخلف ، وفى حاجة إلى مسايرة اللغة ، وإلى تخطيط جديد ، وهذا ما صنعه بجرأة لا نظير لها بين من سبقوه ومن عاصروه» [1] .

إن نظرة عجلى فى «المفصل» تعكس عدم تأثر مؤلفه بنظرية العامل ولا بنظرية المعمول ، ولا بالفصل بين قضايا النحو وقضايا الصرف ، هذه النظريات التى أربكت النحاة قبله ، وسببت لهم الكثير من الخلط

---

(١) تطور الدرس النحوى / ٨٠ - ٨٢ .

والاضطـــراب . . . من أجل ذلك سـلم له من النـحو ما أراده للـنحو ، . . ولعل من أهـم مميزاته أنه تخـلَّى عن كل ما كان يشـوب المؤلفات النحـوية من الحشو والاسـتطراد وذكر الخـلافات ، كما تـخلى عن الـتعليـلات العقلـية أو المنطقية . لهذا لم يكد يظهر كتاب «المفصَّل» حتى أقبل الدارسون عليه إقبالاً لا يعادلـه تقريبًا إلا الإقـبال على كـتاب سيبـويه بعد وفـاة صاحبه ؛ ذلـك لأنهم وجـدوا فـيـه طلـبتهم مـتمثلـة فى الحصول عـلى المادة النـحوية خالـصة من الشوائب ، وسهلة التناول فى عبارة موجزة [1] .

من خلال هذين المثالين نستطيع أن نقرر فى ثقة أن عوامل النجاح والقبول لعمل الزمخشـرى كانت فى منهجه الذى لم يسفِّه رأيًا للـقدامى ، ولم يتعرض لجهودهم بالانتقاص ، بل سعى إلى تحقيق هدفه بهدوء ومنهجية ذكية ، جعلت الناس تتلقف صنيعه ، وتتقبَّله بالرضا ، فشرق وغرَّب ، وحظى باهتمام العلماء والباحثين إذ أكبُّوا عليه قراءة ، وشرحًا وتعليقًا حتى ليخيل للدارس أنهم كادوا ينـسون كتـاب سيبويـه ، وحل من اهـتمام الـدارسين محل إيـضاح أبى عـلى الفارسى الذى شغلـوا به قرابة قرن ونصف القرن قبله . كما نـستطيع أن نقرر أن سبب فشل ابن مضاء فى تحقيق دعوتـه الجزئية فى المنهج والمنطق ، كان فى تحديه لمـشاعر سدنة هذه الـلغة ، ومحاولتـه بتر بعض أجـزاء مكونات ثقافـتها النحـوية - حتى ولم تـكن هـى مصـــدر الداء - ، فالـبرغم مـن دعـوته إلى التيسير ، ورغبة طلاب العربية فى الـنحو الميسر إلا أن التنازل عن الأسس التى رأى أنها شوائب يجب النـظر فى التخلص منها ، أصبحت عنـد المشتغلين بهذا العلم مبادىء وثوابت لا تقبل المناقشة ، وليس من اليسر التخلى عنها .

فإذا ما تجاوزنا عهد ابن مضاء والزمخشرى رحمهما الله ، وتخطينا العصور

---

(١) المصدر الـسابق ٨٢ - ٩٠ .

التالية مروراً بالجهود المبذولة فى تيسير النحو ، عن طريق نظم قواعده فى منظومات شعرية قصد منها تسهيل حفظ تلك القواعد على الدارسين كألفية ابن معطى ، وألفية ابن مالك ، وشروحهما ،وما أضافته دراسات ابن هشام ومعاصريه فى المشرق والمغرب ، إذا تجاوزنا هذه العصور إلى العصر الحديث وجدنا أن قضية التيسير تعود جذعة وينبرى لإثارتها جلة من علماء هذا القرن [1] ، يأتى فى مقدمتهم : الأستاذ الجليل الدكتور إبراهيم مصطفى ومشروعه الذى ضمنه كتابه «إحياء النحو» وفيه دعا إلى إلغاء بعض أبواب النحو ، والاكتفاء بأبواب عيَّنها ، وحدد الإطار لكل منها ، إلى جانب بعض الآراء الجريئة التى خالفت ما استقر عليه عرف الدارسين فى أبواب كثيرة .

وتستهوى صرخة المرحوم إبراهيم مصطفى القائمين على التربية والتعليم فى وزارة المعارف المصرية ، فتؤلف لجنة من كبار الأساتذة فى النحو والأدب ضمت أعضاء من رجال الوزارة نفسها ومن أساتذة جامعة القاهرة ودار العلوم فتدرس آراءه ، وتتوالى اجتماعاتها ، وتتقدم بمقترحاتها للتيسير المنشود ، وتلتقى مقترحات اللجنة مع مقترحات الأستاذ إبراهيم مصطفى فى كثير من نقاط الاتفاق ، ثم عرضت الوزارة هذه المقترحات الرامية إلى تيسير النحو على مجمع اللغة العربية ، فأولاها اهتمامه ، وبعد إجراء بعض التعديلات عليها أقرها مصدَّرة بالقرار :

«إن كل رأى يؤدى إلى تغيير فى جوهر اللغة وأوضاعها العامة لا ينظر إليه» ثم طلب المجمع إلى الوزارة أن تؤلف كتب النحو للناشئة على أساس مقترحات لجنة الوزارة وما أدخل عليها من تعديلات . وبعد نحو عشر

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى : تيسير النحو والكتابة (ضمن إصدار مجمع اللغة العربية فى خمسين عامًا) فى عيد المجمع الخمسينى ، ص ١٦٩ - ١٧٢ .

سنوات ألفت الكتب وأخذت الناشئة تتعلم هذا النحو الميسر ، غير أن الشكوى منه عمَّت جميع المدارس ، ورئى الانصراف عنه وإهماله ، والذى يبدو أن هذه الكتب خرجت على غير ما أراده لها المجمعيون ، فكانت بمثابة الدواء الذى يصرف للمريض مخالفًا لوصفة الطبيب ، أو أنها خرجت عن النص - كما هو معلوم عند أهل الفن فى عصرنا - فكانت النتيجة أن تموت تلك المحاولات ، وتعود الحال إلى ما كانت عليه وكأن شيئًا لم يكن .

وتوالت اللقاءات والمؤتمرات بعد ذلك متخذة موضوع تيسير النحو مائدة للنقاش والدراسة إلا أن المشروع يرفض جملة من قبل مجمع اللغة العربية بدمشق ، كما يرفض رفضًا صريحًا من قبل مجمع بغداد [1] .

ويُزامن هذا المشروع دعوةٌ إلى إلغاء الإعراب من العربية ، والاستعاضة منه بتسكين أواخر الكلمات المعربة بحجة أن الإعراب لا صلة له بالمعنى ولا تأثير له فيه [2] ، وأخرى إلى إحلال العامية محل العربية الفصحى [3] ، ويقوم المعارضون والمؤيدون وتتمخض الجولة عن ظهور أعمال لكلا الأطراف ، حيث ظهر «النحو المعقول» للدكتور محمد كامل حسين [4] ، والنحو الجديد «لعبد المتعال الصعيدى» ، و «حصوننا مهددة من داخلها» للدكتور محمد حسين وكتاب «من قضايا اللغة والنحو» للدكتور على النجدى ناصف ، وغيرها ، كما نشر فى الفترة نفسها كتاب «الرد على النحاة» مصدرًا بدراسة ضافية للتيسير الذى ينادى به ابن مضاء منذ قرون ، تلك الدراسة التى قدمت فى هيئة مشروع إلى مجمع اللغة العربية . وبالرغم من تقبل بعض أعلام ثقافتنا المعاصرة أمثال

---

(١) المصدر السابق / ١٧٢ .

(٢) انظر : من قضايا اللغة والنحو / ٤ .

(٣) المصدر السابق / ٤١ - ٤٩ .

(٤) الجزء ٢٧ من مجلة مجمع اللغة العربية .

الدكتور طه حسين وجهة نظر ابن مضاء وإعلانه أن هناك ما يؤيد وجهة نظره من ضرورة إصلاح النحو وتجديده ، وتقديمه إلى النشء فى صورة ميسرة سهلة ، بعيدة عن الفلسفة والتعمق والغموض والتعقيد» [1] . بالرغم من ذلك إلا أنه لم يكتب لذلك المشروع شيء من النجاح كما لم يحالف النجاح كتب النحو التعليمى التى ألفت فى ضوء تلك المقترحات [2] ، حيث اختفت «قواعد اللغة العربية» لحفنى ناصف ، و «النحو الواضح» لعلى الجارم ، وبهتت جذوة كل محاولة للتيسير ، ثم يعود الحال كما كان وتعود الشكوى من صعوبة النحو ، وتعم الأقطار العربية دون استثناء ، وتتطلع الناشئة إلى من يخفف من معاناتها فى التعامل مع هذه القوانين المجردة ، والاختلافات المذهبية والأقيسة المنطقية والتعليلات التى تشتت أذهان الدارسين دون أن تقدم لهم خدمة ملموسة فى صحة النطق أو فهم النصوص . ومع التوسع فى التعليم بمراحله المختلفة فى الأقطار العربية يتسع حجم المشكلة التى تواجه الناشئة فى تعلم النحو والصرف ، فكان على المفكرين وحملة الرسالة أن يجدوا حلاً لمشكلات الشباب التعليمية ، وليس أهم من اللغة العربية التى هى هوية الأمة كلها ، ووعاء ثقافتها ، ورمز وحدتها .

ويبعث مشروع التيسير من جديد فى عام ١٩٧٧ م على يد الدكتور شوقى ضيف صاحب ابن مضاء ورفيق منهجه الداعى إلى تخليص النحو العربى من كثير من شوائبه . فقد طور هذه المرة مشروعه الذى تقدم به قبل ، وشاء الله أن يقر المجمع شطرًا كبيرًا من مقترحات هذا المشروع ، فأتبع مشروعه برسم إطار لتنفيذ التيسير المقترح فى كتابه المرسوم بعنوان : «تجديد النحو» [3] وبالرغم

---

(١) انظر طه حسين ومشكلة النحو ضمن كتاب «بحوث وباحثون ، الكتاب الثانى» ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) انظر تجديد النحو / ٣ .

(٣) صدر هذا الكتاب عن دار المعارف سنة ١٩٨٢م .

من وجاهة ما دعا إليه بصفة عامة إلا أنه لم يسلم من بعض المآخذ ، ولكن من القسوة أن يقال : إن «الكتاب غير صالح فى نهجه وتبويبه ومادته ليكون عتاداً يرجع إليه مؤلفو كتب النحو التعليمى ، ليضعوا على أسسه كتبًا لهم كما كان يرجو مؤلفه» [1] .

إن الذى لا يختلف عليه اثنان هو «أن ما يحتاج إليه تلميذ المرحلة الأولى يختلف عما يحتاج إليه طالب الجامعة غير المتخصص فى اللغة العربية ، وما يحتاج إليه هذا الطالب يختلف عما يجب أن يلم به الطالب المتخصص الذى يعدُّ نفسه ليكون معلمًا للغة العربية . . .» [2] وليس ثمة شك أن القائمين على تدريس النحو العربى فى الجامعات قد لمسوا عن كثب ما يتطلع لمعرفته الطالب المنتمى لغير تخصص اللغة العربية من هذا العلم ، فى الوقت الذى لا يشبع ذلك القدر من المسائل النحوية نهم الطالب المتخصص فى قسم اللغة العربية ، فإذا كان الأول قنوعًا بما يقيم عبارته المكتوبة أو المنطوقة ، فإن الثانى سيندفع لا شعوريًا وراء خلافات النحاة ، ومذاهبهم ، ،سيبحث العلة مستعذبًا طرقها ومناهجها وفلسفة علمائها .

كلنا يعلم ثقل هذه المادة بما أثخنت به من علل ثوان وثوالث ، ولست أشك فى أن أحداً لا يطيب له إثارة مثل تلك العلل عند من يتبرم من سماعها ، ترى أليس كافيًا أن يعلم الطالب أن الفاعل مرفوع وكفى ، وأن ذلك الرفع ثبت باستقراء كلام العرب المتواتر ؟ أليس الحكم هنا كالحكم بحرمة شىء جاء فيه نص من الكتاب أو السنة ؟ وأنّ السؤال : لم حرِّم لا يوجب الجواب على الفقيه ؟! فكذلك لو سئل فى النحو عن العلة فقال : للفرق بين الفاعل

---

(١) النحو العربى بين التطوير والتيسير ، مجلة اللغة العربية ، الجزء السبعون ، ذو القعدة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ص ٢٥١ .

(٢) المصدر نفسه .

والمفعول فلم يقنعه ، فسوف يسأل ولِمَ لَمْ يُنصب الفاعل ويرفع المفعول ؟! وهكذا من علة إلى أخرى دون أن يكون لمعرفتها قيمة فى العلم [1] .

إن حبنا للعربية وتقديرنا لدورها فى حمل الثقافة الإسلامية يجب أن لا ينسينا أن مثل الناشئة فى تعلمها كمثل المريض أمام الطبيب ، فلو زادت جرعة الدواء فقد تؤدى بحياته ، ولو نقصت عن حاجة جسمه لم يفده الدواء ، فينبغى مراعاة الحال .

وإن تبسيط المطولات من كتب التراث مطلب من مطالب التيسير ، وكذلك التخفيف من الخلافات والعلل والأقيسة والتأويلات النحوية ، كما أن الإسراف فى الاستشهادات التى تظهر فيها الصنعة ، ويعول فيه على الندرة والشذوذ يجب أن يخلص منه النحو الذى يقدم للنشء ، وأن تبقى تلك المماحكات للمتخصصين فى هذا العلم دون سواهم .

ثم إن الإعراب الملبس ينبغى أن يكون مناسبًا للمرحلة التعليمية للطالب آخذًا بعين الاعتبار مرحلة النضج العقلى ، ففى إسناد الأفعال المعتلة إلى الضمائر يواجه الطفل وهو فى منتصف المرحلة المتوسطة (الإعدادية) أمثلة مثل قولهم : (أنتم تَسْمُون إلى ذُرى المجد) ، (وأنتُنَّ تَسمُون إلى ذرى المجد) فيطلب منه التفريق بين النونين والواوين فى الفعل فى الجملتين ، ويواجه فى الباب نفسه أمثلة من نحو : (أنتِ تَسْعَيْنَ فى عمل الخير) ، و (أنتُنّ تَسْعَيْنَ فى عمل الخير) فيطلب إليه معرفة الفرق بين الياء فى الفعلين ، وكذلك النون فيهما . أليس مما يثير فضول الطفل أو يحير عقله أن نعرب له النون الأولى علامة رفع للفعل المضارع لأنه من الأفعال الخمسة ، وأن الياء فيه فاعل ؟ وفى

---

(١) انظر الرّد على النحاة / ١٥١ - ١٥٢ .

الوقت نفسه نحـاول أن نقنعه أن النون فى الجملة الثانـية فاعل ، وأن الياء هى حرف الإعراب وأن أصلهـا الألف فى (سَعَى وَيسْعَى) ؟ ترى هل هذه العـملية تتناسب ومستوى الـتفكير اللغوى لطفل الحادية عشـرة أو الثانية عشرة ؟! أمن الحصافـة أن نطلب من طفـل المرحلة الابتدائـية أن يفرق بين واو الجمـاعة فى الفعل المضارع والواو فى جمع المذكر السالم ؟ ترى كيف يستطيع المعلم فى هذه المرحلة أن يفرق بين الواوين وأن أحدهما ضمير فى محل رفع فاعل ، والآخر علامة للإعراب ؟ أليست ألغازًا نضعها أمام ناشئتنا ونحن نطلب منهم الفرق بين الألفـين فى قولنـا (الولدان) ، والأخرى فـى (يجتهـدان) ، فإذا تكونـت من الكلمتين جمـلة واحدة كيف نمتحن ذكاءه بأن الألف فى الـكلمة الأولى علامة الإعراب للمثنـى ، لكنها فى الكلمة الـثانية فاعلٌ أما النون فى الـكلمة الأولى فتثبت عوضًا عن التنوين فى الاسم المفرد ، لكنها فى الكلمة الثانية علامة لرفع الفعل ؟! .

أليس حريًا بنا وقد أصبحت جامعاتنا تقذف بخريجيها من المعلمين التربويين أن نراعى قدرة الطالب ومرحلته العمريـة ، وأن نقدم له ما نريده نحـن بطريقة لا تحرمه العلم الضرورى ، كما لاتنفره من طلب ما هو ضرورى .

إن الذين وقفوا ضـد مطلب التيسير ينـبغى أن يدركوا أن التغييـر ينبغى أن يكون واعيًا للرسالـة مستهدفًا بناء العربية لا هدم أسـسها ، وأن الأسلوب الذى كان يناسب طلاب العربية فى العصور الإسلامية الأولى ، أو العصور الوسطى قد لا يكـون من الحكمة أن نـقسر طلابنـا فى هذا العصـر عليه ، وأن تنـطلق النصوص الـتى نقدمها لـلناشئة من تـراثنا الفكرى ، مـع إلباسها طابـع عصرنا الحاضر ، حتى لا يشعر المـتعلم أنه إنما يردد قوالب من التعبيـر والخبرة البشرية

دون معنى أو محتوى ، وأن التيسير ليس معناه التنكر للماضى أو محاولة طمسه وإهماله ، بل هو السعى نحو فهمه فى ضوء معطيات العصر ، وجعله وسيلة نافعة فى الحياة الحاضرة .

ثم ما بالنا نألف إذا قيل لنا عن تيسير هذا العلم وتسهيله أمام النشء ؟ ألم نستجب للصرخة الأولى التى دعت إلى إحلال مناهج الرياضيات الحديثة محل التقليدية ؟! كلنا يعلم ما قاسى الآباء من صعوبات فى هذه النقلة العلمية ، بل لقد دخلت مدارسنا ولما يتهيأ لها المدرسون المتخصصون ، وارتفعت شكوى الطلاب وأولياء أمورهم ، ولكن قيل لهم : اصبروا ، فصبروا حتى أصبحت اليوم مستساغة عندهم ، وأخذت الشكوى من صعوبتها تختفى ، وتقبلها فى مدارسنا يعكس الرضا عنها . ومثل ذلك يمكن أن يقال فيما أصاب مناهجنا من تطور فى حقل مادة العلوم أيضًا .

إذن فلم لا نوطن أنفسنا على التيسير الذى لا يضيع هوية لغتنا ، ولا يبعدنا عن تراثها ؟

بقيت مسألة مهمة وهى التى لا نكاد نفكر فيها فى زماننا هذا ، الزمن الذى فصل بين أصحاب الهدف الواحد بحجة التخصص ، فأستاذ الأدب يعتذر عن مناقشة إعراب مشكل لكلمة تعرض له ، أو تصريف لفظ أشغل المتعلم عند قراءة القصيدة أو النص الأدبى ، وأستاذ النحو لا يعير الصورة البلاغية التى تعرض له أى اهتمام ، كما أن أستاذ البلاغة لا يهمه غير معرفة ما فى النص من جمال ومن صور وجناس ونحو ذلك أما الطالب فيهمه معرفة ذلك كله ، وعجبًا لمعلم يكون أدنى من طلابه !

إننا لو تناسينا مسألة التخصص على الأقل فى محاضراتنا ، وجعلنا

موضوع الدرس فـى خدمة «العربية» دون فصـل لعلومها ، أزعم فـى النهاية أننا سنصل مـعًا إلى تكوين شخصية لغـوية متكاملة لدى الناشـئة ، وهـذا هـو الأسلوب القديم فى التعليم ، فحيـن وضـع سيبويه كتابه لم يخصصه للنحو أو للصـرف أولهما معًا ، بـل كان «موسـوعـة كبيـرة لـكل المعـارف المتـصلة باللغـة . . . إنه يقدم لنا أبحاثًا فى الأصوات وفى طـبيعتها ، وفى صلتها باللغة كوسيلة للتـفاهم من ناحية وكأداة للإفصاح والبيان مـن ناحية أخرى ، وأبحاثًا فى الصرف ومجالاته المخـتلفة ، وأبحاثًا فى المعانى والبيـان والبديع ، وأبحاثًا فى الأدب والنقد الأدبى ،وأبحـاثًا فـى فقـه اللغة وما يندرج تحـته مـن مسائل وقضايا ، وأبـحاثًا فى موسيقى اللـغة والعروض ، وأبحاثًا فى لهـجات العرب ودرجاتها من القوة وما ترتب على ذلك من مذاهب وآراء» [1] ، إننا لسنا بصدد أن نقرر ماذا يحتوى كتاب سـيبويه من العلوم العربية ، فقد كفانـا سيبويه نفسه مؤونة ذلك عندما افتتح كتابه بقوله :

«هذا باب علم ما العربية» [2] .

ثم لما تلقفه طلابه ونخص منهم الأخفش الأوسط ، كانوا يقومون بتدريس مادة الكتاب كلها ولا ينزعون إلى تخصص عـلى حساب العلم بالعربية ككل لا يتجزأ ، وإذا كان الـربط بين هذه العلوم مطـلبًا فى ذلك الزمان فإنه فـى زماننا هذا أكثر إلحاحًا وأسمى هدفًا .

ثم إن مما يقتـضيه التيسير المطلـوب اختيار النصوص ذات الوظيفـة اللغوية الأدبية والمـعلومات الثـقافية ، فـى أسلوب واضح بعـيد عن التعـقيد والتـقعر

---

(١) تطور الدرس النحوى / ٥٣ .

(٢) الكتاب ١ / ٢ .

والغرابة والإلـغاز ، ولا مانع من تدريبهـم على القراءة والحفظ ما أمـكن لهم ذلك لتـتعود ذلك نـفوسهم وتدرج عـليه ألسـنتهم ، أما الـتزام الفصـحى فى التدريس فمطـلب لنجاح التجربة التربـوية للنشء ، وإلا فكيف يستـقيم اللسان بتعلم القواعد نظريًا دون تطبيعها عمليًا ؟!

المصادر

١- الأنبارى ، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد :

أسرار العربية ، عنى بتحقيقه محمد بهجة البيطار .

مطبعة الترقى بدمشق .

٢- التوحيدى : أبو حيان :

الامتناع والمؤانسة .

٣- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ :

الحيوان .

تحقيق عبد السلام محمد هارون ، منشورات محمد الداية ، بيروت ، ودار إحياء التراث العربى ببيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م .

٤- ابن جنى ، أبو الفتح عثمان :

الخصائص .

تحقيق محمد على النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م .

٥- حموده ، طاهر سليمان

تيسير تدريس اللغة العربية

جامعة الاسكندرية ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٢م .

٦- خليفة ، عبد الكريم :

تيسير تعليم العربية فى التراث .

مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثامن والخمسون ، شعبان ١٤٠٦هـ ، مايو ١٩٨٦م .

٧- الزبيدى ، أبو بكر محمد بن الحسن :

طبقات النحويين واللغويين

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م .

٨- السيد ، عبد الرحمن :

النحو العربى بين التطوير والتيسير

مجلة مجمع اللغة العربية الجزء السبعون ، القعدة ١٤١٢هـ / مايو ١٩٩٢م .

٩- السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن السيوطى :

بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة

الناشر : دار المعرفة - بيروت ، لبنان ، بلا تاريخ .

١٠- ضيف ، شوقى :

- تجديد النحو ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٢م .

- تيسير النحو ، ضمن كتاب فى أصول اللغة عن مجمع اللغة العربية فى عيده الخمسينى ، جـ٣ ، الطبعة الأولى ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

- المدارس النحوية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٧٢م .

١١- عبد التواب ، رمضان :

بحوث ومقالات فى اللغة

الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ودار ا لرفاعى بالرياض ، مطبعة المدنى - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م .

١٢- ابن عبد ربّه : الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى

العقد الفريد

بتحقيق : الدكتور مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .

١٣- أبو الطيب اللغوى : عبد الواحد بن على :

مراتب النحويين

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، مطبعة دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

١٤- عون ، حسن :

- تطور الدرس النحوى : منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، مطبعة الجبلاوى ، القاهرة ١٩٧٠م .

- دراسات فى اللغة والنحو العربى

منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، مطبعة الكيلانى ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

١٥- عيد ، محمد :

أصول النحو العربى فى نظر النحاة ، ورأى ابن مضاء فيضوء علم اللغة الحديث ، الناشر عالم الكتب بالقاهرة ، ١٩٧٨م .

١٦- القرطبى ، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء ،

الرّد على النحاة

تحقيق : الدكتور شوقى ضيف ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ١٩٨٢م .

١٧- القفطى ، جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف :

إنباه الرواة على أنباه النحاة

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م .

١٨- المبارك ، مازن :

الرمانى النحوى فى ضوء شرحه لكاب سيبويه

الطبعة الثالثة ، دار الفكر بدمشق - سوريا ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .

١٩- مدكور ، إبراهيم مدكور

بحوث وباحثون ، الكتاب الثانى - باحثون - منشورات مجمع اللغة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

٢٠- ناصف ، على النجدى :

من قضايا اللغة والنحو

مكتبة نهضة مصر ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

٢١- ياقوت ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى :

معجم الأدباء

نشرة مارجليوث ، دار إحياء التراث الإسلامى - الطبعة الأخيرة ، بيروت - لبنان ، بلا تاريخ .

٢٢- ياقوت ، محمود سليمان :

قضايا التقدير النحوى بين القدماء والمحدثين

دار المعارف بمصر ١٩٨٥م .